جمالية الموت في البكائية عند الشاعر الشعبي

فتيحة العقاب

جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر

ملخص

ليس للموت جمالية ، و لكن الموت قد يكون سببا في خلق جمالية متميزة عندما يلهم الشاعر لكتابة قصيدة فيها من الإبداع ما فيها من اللوعة، و الإنسان الشعبي على شعبيته مبدع بامتياز، و قد جاء هذا البحث ليسلط الضوء على هذا الإنسان الشعبي، و شعره الملحون في ستة عناوين (فكرة الموت وصلة الشاعر الشعبي بعالم الأحياء والأموات، الراثي الشعبي، دموع الباكي، بين البكائية، و العديد، و النواح، معاني الرثاء، مقومات الرثائية الشعبية).

كلمات مفتاحية: الموت، البكائية، الشعر الشعبي، الشعر الملحون، الرثاء

Abstract in English:

Death does not have the aesthetic But may be the death a cause in the creation of a distinct aesthetic, When it is inspire the poet to write a poem combines creativity, and sadness .

and the popular human is an iconic distinct, And this research reveals on this popular human, and his popular poetry in six titles (The idea of death and the link between popular poet and the world of the living and the dead, the popular poet in Lament, the tears at the crying, between the crying and the wailing and the scream, lament meanings, components at the lament poem)

مقدمة

إن الموت هو نهاية البداية عرفته الإنسانية و تعايشت معه فلا وجود لأمة لم يدق الموت بابها و لم تكتوي بنار فقد الأحباء، و قد اختلفت الثقافات في الممارسات و الطقوس التي تعبر عن مدى الحزن و العجز أمامه و لعل الشعر على اعتبار أنه عاش مع العربي حياته كلها يعد في مقدمة الممارسات التي تعبر بها الطبقات عن الفرح و القرح، و الرثاء هو شعر الحزن بامتياز موضوع قائم بذاته على مر الأزمان تسيطر فيه عاطفة البكاء و الحزن لفقدان المحبوب .

فلما يطلق الشاعر العنان لخياله في رسم تلك الصورة الحية للألم و المعانات و نقل التجربة للمتلقي وحمله على معايشة الحدث تظهر جمالية اللوحة الرثائية، خاصة و أن الموت تجربة إنسانية تجرع الكل كأس مرارتها .

و اللوحة الرثائية كموضوع خاص أهملت على المستوى الشعبي كون الطبقة الشعبية أرض بكر لم تلتفت إليها الدراسات إلا مؤخرا .

1- فكرة الموت وصلة الشاعر الشعبي بعالم الأحياء و الأموات :

إن الموت نهاية البداية يولد الحزن ويضع الإنسان عاجزا أمام حكم القدر " فهذه طبيعة الحياة خلق و ولادة وشباب فكهولة فشيخوخة فموت".[1]"فالحياة تستوجب الموت وإذا كان هناك فرحة بالميلاد كان هناك حزن بالفناء"[2].

وقد عرفت الثقافات الشعبية على اختلافاتها عدة أشكال وطقوس وممارسات في التعامل مع الموت والموتى.فالأديان السماوية تجمع أن الله يقبض إليه الإنسان لما يجيئه أجله بلا تقديم أو تأخير وأن قبض الروح يكون على يد ملك كريم فيرد هذا الإنسان إلى عالم الغيب فيحاسبه بما كان في حياته الدنيا، وفي موقف الإسلام في هذه المسالة يقول تعالى :«قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون »[3] .

إلا أن المجتمعات البدائية الشعبية كانت ترى في الموت نهاية غامضة لحياة أرضية هي خير من ذلك المجهول فهو شر في معتقد العام،و قد كان ظن الإنسان مثلا إن الطير الجارح والوحش الكاسر والطبيعة الطاغية هي التي تحطم حياة الإنسان ،وفي بعض القرى اليوغوسلافية يذهب الخاطِب ،وأمه ،وأقاربه مع فرقة من الموسيقى ليلة الزفاف إلى المقابر لدعوة الموتى الأعزاء

1 -العربي دحو، عر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس من1954 – 1962، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، د ط ،1989، ص46.

2- حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، منشورات اقرأ، بيروت، لبنان، ط 2 ، 1980،ص89.

3-القرآن الكريم، قراءة ورش، سورة الجمعة، آية 8.

،وطلب الصفح والبركة،وفي الفكر المصري القديم ارتبط مقتل أوزيريس* بكثير من الأساطير وحددت مواقيت معينة يحتفل بها في كل

عام لتصور المصريين أن أوزيرس بعد أن قتله أخوه ست لابد عائد للحياة ليهبها الخضرة والجمال فهو روح القمح ومعطي الحياة. هذا فيما يتعلق بالاعتقاد حول الميت، وهكذا ارتبط التراث الشعبي بالعقيدة وحكا تفاصيل دورة الحياة عند الفرد، من الطفولة إلى الموت وتصور ما قبل الحياة وما بعد الموت.[1]

والفكر العربي رغم تشبعه بالثقافة الإسلامية إلا أن هناك بعض الطقوس المتعلقة بالموت فيه تعكس قيم اجتماعية قد لا تمت للإسلام بصلة.

وإذا أتينا إلى الجزائر مثلا نجد الكثير من هذه النماذج ففي بعض المناطق مثلا البوبشير[2]*، إذا كان لونه أبيض يدل على خبر الشؤم وهو الموت ،وبعد حدوث الوفاة في الليلة الأولى يحضر أهل الميت الأئمة لقراءة القرآن على روح الميت وهو ما يسمى بالفداوي**،ويتبع ذلك طقوس أخرى من تحضير طبق [الفتاة]*** الذي يقدم للحاضرين من الأهل وإلى الذين كانوا يقرؤون القرآن على روح الميت بعد وفاته.إضافة إلى ذلك هناك عادة قديمة يمكن القول أنها تلاشت مع الزمن وهي بعد إكمال المرأة عدتها ثلاث أشهر وعشرة أيام تأخذ المشط والبقايا المتساقطة من شعرها وتدفنها قرب لحد الميت – البقايا المتساقطة طيلة فترة العدة – ولعل السبب في ذلك دفنها لكل ذكرياته معها كنموذج لتجدد الحياة و أنه لابد للحياة أن تستمر من خلال مشط آخر جديد،والشاعر الشعبي كأي إنسان شعبي مرتبط ببيئته وعاداتها وتقاليدها وطقوسها إذ يملك حسا قويا بالصلة بين عالم الأحياء وعالم الأموات فرغم إحساسه بمأساة الموت ساعة وقوعه وتملك الحزن والأسى منه سرعان ما يعبر كغيره عن العلاقة الوثيقة بينه وبين عالم الموتى فهو قد يراهم في منامه.

والاستعداد للموت يتجسد باعتقاد أعضاء المجتمع بالأحلام المحملة برموز مادية ومعنوية يتنبؤون بها وقوع الموت، خاصة إذا كان أحد الأفراد مريض أو يحتضر ومن هذه الأحلام كأن يرى المريض في المنام أنه مسافر ويقوم أحد الأهل بتوديعه

---

* هناك أسطورة فسر بها الفكر المصري فيضان نهر النيل وهي أسطورة أيزيس وأوزيرس فكان دمع إزيس مجلبة لفيضان النيل عندما قتل ست أخاها وزوجها أوزيرس.ينظر : حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الفولكلور والفنون الشعبية، (مرجع سابق)، ص 155.

1- ينظر : حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الفلكلور و الفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع ، مطبعة الانتصار،مصر،د ط ،1993، ص (151،152،155) .

* نوع من الفراشات متعدد الألوان.

** الفداوي : ج فدوى : تعني اجتماع مجموعة من طلبة القرآن الكريم عند وفاة الميت أو بعد وفاته أو قبل وفاته- أي بحضرته -كي يقرؤوا القرآن الكريم للحي المحتضر أو للميت و يختموه ثم يعضدون ذلك بقصائد ومدائح دينية في كلمة التوحيد أو مدح النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين أو التذكير بأعمال الإنسان في الدنيا إلى غاية وفاته و تنتهي بالدعاء بعدها يقدم الأجر التلاوة لإكرام القراء .... عن إمام مسجد عائشة أم المؤمنين- بحاسي بحبح - دائرة تابعة لولاية الجلفة.

*** الفتاة : أكلة شعبية من التراث الجلفاوي من العجين الرقيق المحضر بالزيت والمعروف بالمسمن الذي يقطع إلى قطع صغيرة ويسقى بسائل مصنوع من القر والمشمش المجفف والسكر مع إضافة السمن العربي المعروفة بالدهان .

أو رؤية تقطيع اللحم النيئ الذي يدل على وفاة أحد أفراد الأسرة في حين رؤية الفرد أنه مات فذلك دلالة على طول العمر.[1]كما أن رؤية السدو* في المنام دلالة على وفاة أحد أفراد الأسرة.

و الشاعر الشعبي يعبر عن علاقته بعالم الموتى أيضا في حرصه الشديد على زيارتهم في قبورهم في المواسم والأعياد وكأنهم يشاركونهم هذه المواسم والأعياد.[2]

فالموت هو حقيقة مرة لا يجد له الإنسان بدا إلا التسليم له إذ نجد الأستاذ رابح بونار في نظره في الشعر الشعبي وتطوره الفني يقول:"فالموت شيء ضروري لا يجدي الإنسان معه إلا التسليم لأمر الله وقضائه. فالإنسان ناقص الحرية ضعيف الإرادة لا سيطرة له أمام أحداث الحياة و لا قدرة له على دفعها إلا بلجوئه إلى الله "[3].

2- الراثي الشعبي :

إن الشاعر عموما هو ابن بيئته ولسان قومه والراثي الشعبي إذا كانت تجربته ذاتية فإحساسه إنساني. فهو ينفعل بمجتمعه ويتأثر بما يحيط به فيترجم عواطف جياشة متدفقة مطبوعة بانفعالاته،وأحاسيسه ومشاعره المتباينة من حزن،وألم وحرقة على فقد المحبوب. فهو ينفعل بما يحس،ويرى بعينيه لما جبل عليه من دقة الحس ورقة الشعور وشدة ارتباطه بالمجتمع الشعبي الذي يعيش فيه فهو الأقدر على رسم تلك الصورة أكثر من الراثي الرسمي الذي يعيش في برجه العاجي.[4]وبهذا يمكن القول أن الراثي الشعبي يعبر البيئة المحلية التي يرتبط بها في حدود تصوره وإدراكه لأسباب القضايا التي يطرحها وتبدو شخصيته واضحة في النص.[5]فالراثي الشعبي سجل حي للحياة الاجتماعية التي يجسدها كلوحة فنية بريشة رسام ماهر يظهر بحق صور حية كاملة لمعاناة الإنسان ومقاساته وهو لا يعبر عن موقف ذاتي فردي ولكنه يعبر عن حالة اجتماعية عامة من خلال تجربة ذاتية فردية فالأزمات الفردية أو المصائب الجهوية، هي أزمات اجتماعية ومصائب عامة تصيب كل الأماكن مهما تباعدت

ولو اختلفت أشكال وقوعها وتباينت من حيث الضعف والقوة إلا أنها تبقى دائما مصائب،وكوارث نزلت على بني جنسه.فهو في وصفه لا يعمد إلى الصور الخيالية أو المجردة ،ولكنه يعمد إلى التجسيم والتشخيص ليجعل من شعره مادية مركبة

1- ينظر:محمد الجوهري، حسن الحولي ،منى القرنواني ....النظرية في علم الفولكلور.....، مطبعة العمرانية، القاهرة، د ط ، 2003، ص266.

* - السدو: هي أداة النسيج اليدوي بالجزائر وهما أعمدة من الخشب وكذا الخلالة وهي الأداة التي يتم النسيج بها وتضرب بها الخيوط المغزولة فترص .

2- ينظر:نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، (مرجع سابق)، ص12.

3- رابح بونار، مجلة آمال ، وزارة الاتصال والثقافة ، الجزائر، ع 68 ، 2000 ، ص (30،31) .

4- ينظر :حسين عبد الحميد، الفولكلور والفنون الشعبية ، (مرجع سابق)، ص38.

5- ينظر:تلي بن الشيخ، دور الشعرالشعبي الجزائري في الثورة 1830 – 1845 م الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، د ط 1983،، ص11.

تكاد تلمس كل صورة وأخيلته فهو يربط بين صوره برباط متين يعكس فيه تكوينه البدوي وبيئته الاجتماعية ويضفي صبغة جمالية على صوره وموضوعاته ويعتمد البساطة والسهولة مما يجعل القارئ يعيش معه رثائيته .

والراثي الشعبي في إصدار نفثاته المكتومة من ألمه وحسرته يعتمد اعتمادا واضحا على القدرة الربانية ويرجع إلى الله يتقرب إليه ويرجوه ويدعوه بجاه الأنبياء والصحابة والأولياء ويؤوب إليه مستغفرا تائبا نادما وهو في هذا لا يعقد متواكلا وإنما هو طالب للمعونة من العلي القدير[1]،والراثي الشعبي يحس إحساس الشعب ،ويكافح كفاحه ،ويتكلم بلغته ،ويصرخ صراخه[2]،ومارون عبود في السياق نفسه يخاطب الشعراء الشعبيين، الذين أعجب بهم راسما بعض خصائص الشعر يقول: "عشتم يا إخواني فأنتم شعراءنا إن شعركم منبثق من نفوسنا، من قلوبنا، من أعماقنا من ظلماتنا من عرا زيلنا وخيامنا من يقظة عجائزنا وأحلام صبياننا (.....).إن الشعور بالحياة وإدراكها الكامل لا يكونان تابعين إذا عبرت عنهما بغير اللغة الدائرة على الألسن، وبهذا يثير شاعرنا العامين النفوس إثارة يعجز عنها أكبر شعرائنا الرسميين".[3]

وهكذا إذا كان الشعراء قد أشادوا وبكل ما أوتوا من أمور تدل على أنهم يمارسون حياتهم[4]. فقد تألموا لانقضاء الممارسة وكان ألمهم يزول مع زوالها و ضعف تأثيرها وكلما عظم الحي اشتد حزنهم على فقدانه واتسع إعلانهم لهذا الحزن وسمي ما يصدر من شعر في هذه لمناسبة بالرثاء.وقد اشترك في هذا الفن الرجال والنساء،ولكنه عرف عند النساء وأكثر ونال الحظ الأوفر، ومن الطبيعي تفوق النساء على الرجال في ندب الموتى والنواح عليهم كون المرأة أدق حسا وأرق شعورا.[5]فالراثية الامرأة إحساسها أعمق ورسمها للصورة أفرد وذلك بالضرورة راجع إلى طبيعة المرأة وأسلوب تعاملها مع الظروف التي تعيشها الأمر الذي ينعكس على إبداعها الشعري من خلال ما يظهر لديها من عاطفة ومن خلال الأدوات الفنية المختلفة التي تقوم عليها القصيدة[6]،وآراء هذا الراثي الشعبي في الموت ،والحياة ،والقضاء،والقدر الباحث فيها يجد أنها مستمدة من القرآن ،والسنة ومباحث العقائد.[7]

1- ينظر:جلول يلس وأمقران الحفناوي، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، دار رحاب،الجزائر، د ط، د ت، ص (5 ،9).

2- ينظر:سلامة موسى، الأدب للشعب ،سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة، د ط ، د ت، ص49 .

3- مارون عبود، الشعر العامي، بيروت، لبنان، د ط، 1968، ص (62، 63) .

4- ينظر:حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، (مرجع سابق)، ص 89 .

5- ينظر: د.شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن الغنائي (الرثاء)، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1987، ص 8 .

6- ينظر: مي يوسف، الشعر النسائي في أدبنا القديم، مكتبة غريب، القاهرة، د ط، د ت، ص 93 .

7- ينظر: رابح بونا ر، مجلة أمال، (مرجع سابق) ،ع 68، ص 30.

3- دموع الباكي : تختلف غزارة دموع الباكي لعدة عوامل :

- جنس الباكي: لقد ذكر كل من د.شوقي ضيف ومي يوسف. فيما سبق فيما يخص جنس الباكي أن المرأة الراثية في رسمها للوحتها الرثائية تكون أدق وأعمق من الرجل.

فدموع الراثيات أغزر لأنهن أشجى الناس قلوبا عند المصائب وأشدهم جزعا على هالك لما طبعهن الله عليه من الخور وضعف العزيمة وعلى شدة الجزع يكون البكاء إذ نجد الشاعرة قاسم أم الخير* في رثاء أخيها تقول:

يا وعدي ذا الهم جانا متعـــدي والله لايبلي لخلايق بالمحنـــــات

طرف برية جاب كيات ليـــــا وخلق الله من محنته قاع تباكات

هذي جمرة طاحت عليا وحدي وميخوذة ومكدسة هدا مـــرات

فهي هنا تصف عظم المصاب وكيفية وصول الخبر إليها.

- علاقة الباكي بالمبكي: فإذا كان المبكي من الأهل أو الأحباب و الأصدقاء أو من جلة القوم من الملوك والرؤساء تكون الدموع في الرثائية مختلفة فهي أغزر كلما اشتدت العلاقة والقرابة.
- توقيت البكاء: فإذ كان النظم عند وقوع الوفاة تكون الدموع غزيرة والمعاني أعمق وأكثر تأثيرا وتكون في هذه الحالة مقطعات صغيرة وأبيات مفردة أو معدودة ويقل هطول الدمع إذا كانت البكائيات بعد مرور فترة زمنية أطول بعد الوفاة.
- ظروف وفاة المبكي: فإذا كان ظرف الوفاة قتلا كان الدمع حارا غزيرا مناسبا لطريقة الوفاة ويقل ذلك كلما كانت الوفاة عادية، إذ تكون اللوعة أقل.
- أثر العاطفة الدينية : إن بكاء الشعراء على المتوفى قبل الإسلام يختلف بعده لأن قيم الإسلام ومبادئه تحث على عدم المبالغة.[1]

فالإسلام دعا إلى البكاء على الميت لا العويل والنواح على اعتبار الموت حق وكل نفس لا بد وفانية.

* عرفت ببلدية دار الشيوخ -تابعة لولاية الجلفة و تبعد عنها بحوالي 40كلم -بأم الخير القوالة وقد ولدت عام 1913 ويعود نسبها إلى عرش أولاد العقون، وقد فرضت الشعر منذ الصغر حيث لم يتجاوز عمرها آنذاك ثمانية عشر سنة وقدكان تركيز الشاعرة على مدح ورثاء شيوخ الدين والزوايا سجلت الأبيات بعد لقاء مع الشاعرة في، 07/11/ 2008.

1- ينظر:ع لي محمد سلام ،البكاء والدموع في الفلسفة والأدب والحياة الاجتماعية،مراجعة :إسماعيل عبد الفتاح، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، د ط ،2005 ،ص(136، 137) .

4- بين البكائية والعديد والنواح:

- إن البكائية والعديد والنواح مفاهيم تكاد تكون متطابقة فهي في مجملها تكتنز في طياتها الحزن والألم واللوعة لفقدان عزيز.فالبكاء في اللغة من « بكى » أي سال الدمع من عينيه حزنا في حين أن الحزن ليس هو السبب الوحيد للبكاء و" البكى" (مقصورا) يكون بإخراج الدموع فقط أما (البكاء) "ممدودا" فيكون بإخراج الدموع مع الصوت. وفي درجة البكاء فأشد البكاء النشيج والنحيب و الاحتراط أما العويل و النواح فهما للمرأة خاصة.[1]ومن البكاء البكائية .

ومن هذا فالمعاني الثلاثة تختلف في الدرجات من حيث استدرارها للدموع والمبالغة وتجاوز الحد في البكاء.فبكاء الموتى هو "النوح" وقد عرف لدى النساء أكثر ولاقى لديهن الأهمية ولا يستطيع المرء التفرقة بين الشعر الذي ناح به النائحون والشعر الذي لم يخضع للنوح. وهذا ما أكد عليه الدكتور حسين نصار في الوقت الذي يعرف فيه شعر الرثاء قائلا: " ولا يتعدى شعر الرثاء مدح الميت بالفضائل العربية المعروفة في الجاهلية والإسلام ووصف ما يشعر به الراثي من حزن شديد وما أحس به الناس بعد فقدهم المرثي ...."[2]،وهو هنا يضع الرثاء عامة في نفس المرتبة مع أحد معانيه وهو التأبين الذي يعرفه الدكتور شوقي ضيف قائلا:" أصل لتأبين الثناء على الشخص حيا أو ميتا ".[3]

أما العديد فيعتبر فنا قوليا شعبيا يختص بالاحتفال بالموتى رغبة في تخليد ذكراهم وتذكر أفعالهم على طول حياتهم وهو الأمر الذي يزيد من الحزن والألم على فراقهم،وهذا الإبداع القولي الأدبي له طبيعة خاصة من حيث المناسبة التي يقدم فيها ومن حيث القائمات على ترديده والطرق التي يؤدى بها إضافة إلى توافقه مع كل حالة من حالات المتوفيين لتتناسب مقولاته مع الدور الذي يؤديه المتوفي في حياة أهله ومجتمعه وصفاته الشخصية وعلاقاته الاجتماعية وتناول الأمر الذي أدى إلى الوفاة والعمر الذي مات عليه الفقيد، ونوعه من ذكر أو أنثى وهو لم يركز على الحالة الواقعية للمتوفى يدعو المزيد من الحزن والدموع والعويل وهكذا يصبح الاحتفال بالميت أكثر تعبيرا عن ألم الفراق ولفقد والقائم على تأدية هذا النوع – العديد – هن العدادت.[4]وفي القصيدة القبائلية في النوع الذي يخص الدعاء تندرج من خلاله الأغاني الجنائزية المصحوبة غالبا بالرقصات والأهازيج وتدعى بـــ"الأهكار".[5]

1- ينظر: علي محمد سلام، البكاء والدموع في الفلسفة والأدب والحياة الاجتماعية، (مرجع سابق)، ص 16.

2- د. حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، (مرجع سابق)، ص 89، 90 .

3- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن الغنائي (الرثاء)، مرجع سابق، ص45 .

4- ينظر: أحمد علي مرسي، في الأدب الشعبي كل يبكي على حاله (دراسة في العديد)، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، د ط، 1999، ص 159، .نقلا عن محمد الجوهر، الفلكلور العربي، بحوث ودراسات، م1 مركز البحوث للدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ط1، 2000، ص 524 .

5- ينظر: عمارية بلال (أم سهام)، شظايا النقد والأدب، دراسات أدبية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص27 .

وإن تعددت التسميات فالمضمون ذاته لا يتغير إذ نجد كل كاتب يطلق تسميته الخاصة على هذا النوع من الشعر الذي يترجم لوعة الفراق ودموع الوداع لكل عزيز استرجع الخالق أمانته فيه.

فنجد أن حسين نصار قد فرق بين الرثاء والنوح في حين أن أحمد رشدي صالح في كتابه الأدب الشعبي يقول في الموضوع والبكائيات تعنى بحادث الوفاة الشاذ فإذا لقي الإنسان مصرعه فجأة أو مات غريبا أو حريقا أو غريقا كان موضوع الندب والتعديد على موته هو ذلك الحادث الفاجع وهو هنا يعمل على الربط بين البكائية والتعديد ويجعل التعديد والندب والبكائية في مستوى واحد.

و في كتاب الأدب الشعبي الجزائري لعبد الحميد بورايو في حديثه عن ألكسندر جولي في تمييزه بين مجموعة الأشكال الفرعية للشعر البدوي من : " قول " * و"نـــــم" **** " القطاعة "****** و"الرثوة" حيث يرى في هذه الأخيرة قلتها لدى الجزائريين أو بشكل خاص لدى البرابرة لكونها تحتاج إلى مشاعر فردية والأهالي الجزائريون يفتقدون لهذا الحس وينجذبون لمباهج الحياة أكثر مما يعنيهم الحزن على الموت[1] ،وهكذا فالمراثي تشكل ظاهرة اجتماعية جمعية[2] لا يمكن عزلها عن مضامينها الاجتماعية وهي يمكن أن تعبر عن مرحلة بعينها من تطور مجتمعها التاريخي[3] فعزل الدراسة عن الظروف المحيطة قد يقلل من قيمتها الحقيقية ،فالمراثي تعد حقائق اجتماعية ،وبالتالي لابد من لحاقها بوحدات جماعية من أجل دراستها .[4]

ويقول عن ذلك أحمد رشدي صالح " إن أكثر فنون الأدب الشعبي إظهارا للملائمة بينه وبين العرف أخلاقيا كان أو اعتقاديا إنما هما فرع البكائيات الجنائزية وأغاني العمل، فأنت تلمس في البكائيات تأكيد بما توحيه العائلة والسلطة الاجتماعية وظواهر الحياة البشرية في معتقد، ووهم، ومن اصطلاح، وعرف"[5]،كما أن العربي دحو في كتابه الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى أوجز الحديث عن الرثاء و لم يذكر أي مرادف له غير البكاء وإنما تحدث فقط عن قلة الاهتمام بهذا

---

*قصيد قصير يسرد بإيقاع شديد التكثيف يتناول أي موضوع ما عدا الهجاء لأنه حينها يتحول إلى هجوة.

** يحمل اسم (الزغوية) لا يتكون سوى من عدد قليل من الأبيات ذات القوافي المتقاطعة.

*** هي نوع فرعي لجنس "الزغوية" وهي أغنية ترتجل دائما وتردد في السفر للتسلي.

1- ينظ : عبد الحميد بورايو،الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، د ط، 2007.

، ص39، 40، 41، 44.

2- ينظر: O.E.A REWA AND DAN BEN AMAS , "*Proverbs And Ethnology Speaking Folklor*", Amer Ican Anthropologist, Vol.66, 1964, P71. -

3-ينظر : DAN BEN, AMOS, "*To Word A Definition* Hammond, Ed Cultural And Social Anthropology (New York : Makmillan : 1975), P 359, 366. *Of Folklore In Context* " In B,

4- ينظر : Zev Barbu *"Popular Culture, A Sociologal Approach* " In : C.W.E Bigshy.Ed Approachers To Popular Culture (London: Aroed. Publisher ETD), 1976, P53.

نقلا عن محمد حافظ دياب ، الديناميات السوسيو تاريخية،مركز دراسات الوحدة العربية ، إشراف عبد المنعم تليمة، بيروت، مارس، 1987، ،ص(309 ،310).

5- أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، (مرجع سابق)، ص 270.

الغرض في قوله:"وأما الرثاء فلم يحظ بالاهتمام البالغ كبقية الأغراض الأخرى ومن الروائع الموجودة في هذا الموضوع رائعة بن قيطون–حيزية – "قوله: " وهناك نوع آخر من الوصف وهو ما اصطلح على تسميته ببكاء المدن أو رثاءها "[1].

5–معاني الرثاء:

تختلف المراثي بالنظر إلى المرثي من حيث وضعه الاجتماعي وسنه وجنسه فما يقال للوجيه لا يؤدى للفقير ،وما يبكى به الموظف غير الذي يندب به الفلاح فلكل امرئ رثائية خاصة به سواء كان شخصا أو بلدا أو شيئا وبالتالي يختلف أسلوب الرثائية في استدرار الدموع.

ولعل الباحث في القصائد الرثائية الفصيحة أو الشعبية يجد بحكم الفطرة أن الدموع سخية،واللوعة متأججة،والألم ممض في بكاء الأبناء (فلذات الأكباد) ،والأخوة،والأزواج ،والحرارة في الدمع تخف واللوعة تهدأ نسبيا عند بكاء الوالدين،وكما يتناول الراثي الأهل والأقارب قد يتناول أيضا بكاء الأولياء الصالحين المعروفين في الفكر الشعبي،أو الصديق الذي رافقه دربه وشاركه أفراحه و أحزانه.فالصداقة تعتبر أسمى العلاقات الإنسانية رغم اشتراك القرابة أو العشق معها لكنها تعد الأفضل كونها أذهب في مسالك العقل و أدخل في باب المروءة و أبعد عن الشهوة،وأنزه عن آثار الطبيعة.فالصديق مستودع الستر وسمير النفس[2]،و إذا بكى الشاعر الشعبي الأشخاص قد يبكي أيضا الصفات المعنوية مثل بكائه على الشباب وتحسره عليه تحسرا تذوب له القلوب.فالشباب ربيع العمر وباكورة العيش،وعهد القوة والصحة،والعافية،والمرح والسرور،ولكن سرعان ما يمضي مخلفا وراءه ذكريات جميلة فتفقد الحياة بفقدانه جمالها وبزحف جحافل الشيب وغزو فيالق الشعر الأبيض مفارق الرأس توهن الصحة و تفتر القوة.[3]

و قد يبكي الشاعر نفسه فيبكي على حاله لاقتراب الموت منه أو على حاله في أرض الغربة أو لظلم الناس له أو لفقدان عضو من أعضائه كالعين أو اليد أو الرجل كما قد يبكي الشاعر الشعبي المدن الزائلة والممالك الحائلة وقد نبهنا الله تعالى إلى ضرورة أخذ العبر من الأمم الزائلة في قوله تعالى :« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم »[4].

1-العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس(1954 إلى 1962)،(مرجع سابق) ص 46-47 .

2- ينظر: علي محمد سلام ، البكاء والدموع الفلسفة والأدب والحياة الاجتماعية،(مرجع سابق)، ص115.

3- ينظر: علي محمد سلام ، البكاء والدموع الفلسفة والأدب والحياة الاجتماعية...(مرجع سابق)، ص137.

4 - القرآن الكريم، قراءة ورش، سورة يوسف، الآية 109 .

وقد يرثي الشاعر الشعبي أيضا مثلما رثى أصدقاءه و أحبابه و أهله ونفسه و شبابه والمدن الزائلة وحيوانه أيضا كنوع من الوفاء و تجسيد مشاعر الحب حتى للحيوان من بكاء و ألم على مفارقة هذا الحيوان فقد يكون حصانا أو كلبا أو من الماشية أو قطا...

والبعض يعد أروع الرثاء ما يندب به الأبطال في ساحة الوغى فالشعراء في البكاء عليهم وفي تعداد مناقبهم يثيرون الأحقاد ويشحذون العزائم ويهيجون القبائل وفيه تتدفق العاطفة لوعة وألما ويشتد الغلو في ذكر أوصاف الميت وتعظيم المصاب به[1]،أما البعض الآخر فيرى أن الرثاء الأسري أشد وقعا و تأثيرا و فعالية لما فيه من صدق المشاعر[2] .

فنجد الشاعر محمد مريزق يرثي إخوانه الذين ماتوا في فيضان منطقة باب الواد مجسدا بطولة أعوان الدرك والشرطة في تضحيتهم بالنفس وتعرض بعضهم للموت في سبيل إنقاذ إخوانه رابطا ذلك بمحنة الجزائر في تلك الفترة والتعددية الحزبية قائلا[3]:

هذا الأزمة حد ما فيها قصـــــر عند الأزمات ذا الشعب يوريـــك

الدرك مع البوليس ما خافوا خطر الحماية والجيش في الخدمة يرضيك

بذلوا مجهودات شياب وعسكـــر أولاد بلادي في لمواجع يلتوبيـــــك

كل آخر عندو أمواقف ويحبـــــر هاين عمرو في لوعر باه ينجيـــــك

ذا باذل جهدو على الأجر يـــدور أحتى لن جرفو الماء باغي يحميـــــك

شفناهم شباب والقادر قـــدر كل آخر سبة أداتو صد عليـــك

منظر هذا الحال يشبه للمحشر كل آخر باكي أبهمو ويبكيـــك

كنا متفرقين هيئات وأســـــر وفي الشدة تلقى لي كان معاديك

ما فادت لحزاب والواقع قـــرر الجزائر لا حزب وحدتنا تبنيـــك

ويقول في رثائه لأمه:

أما عيني على فرقتك ماني صبار صيهد قلبي طاب رمد دخلاني

1- ينظر: بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ، دار صادر، بيروت، ط1 ، 1996. ص62

2 - ينظر :د علي نجيب، الخنساء بنت عمرو (شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1 ،1993 .

3- ولد الشاعر في شهر مارس 1955 ببلديةعين الابل -تابعة لمائرة مسعد ولاية الجلفة -ولكنه نشأ في مدينة مسعد وقد أخذت المعلومات عن الشاعر و قصائد ديوانه الرثائي المرقون عن د. بن علي الطاهر ،جامعة زيان بن عاشور بالجلفة ، في 01/ 01/ 2007 .

نبكي مقواني على عارم لوكـــار بعد أن راح العز الحب جفاني

والملاحظ للمقطعين الرثائيين يجد أن المفعول الرثائي أشد ما يكون وقعه عند شدة تأثر الشاعر نفسه إما لدرجة القرابة التي تربطه بالمرثي باعتباره أحد أفراد الأسرة أو لدرجة الارتباط بالوطن أو المجتمع أو القبيلة أو غيرها.والرثاء في الشعر الملحون قد اتخذ مجاري ثلاث مثله مثل الفصيح من ندب وعزاء و تأبين.

5-1- الندب:

بكاء ونوح وعويل بألفاظ حزينة تستمطر الدموع وهو بكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت فيبكي الشاعر ويلحن بكاءه على قيثارة شعره تلحينا مشجيا كله آلام و حسرات فيئن الشاعر ويتفجع إذ يشعر بلطمة مروعة تصوب إلى قلبه فيترنح من هول الإصابة ترنح الذبيح.[1]

وبما أن الشاعر تتحكم في رؤيته موضوعات الشعر نفسه و تصويره للقضايا خاضع للتجربة نجد شعراء شعبين جزائريين قد بلغوا القمة في غرض الرثاء كرثاء محمد بن قيطون على لسان سعيد لحيزية[2] .

فيقول نادبا نائحا:

نبكي بكي الفراق كي بكي العشاق زادت قلبي حراق خوضت مـــايا

يا عيني وشبيك أتنوح لا تشكيـــك زهو الدنيا يديك ما تعضش عليا[3]

والندب يتطابق مع النوح الذي ذكره حسين نصار في كتابه الشعر الشعبي العربي وقال أنه عرف أكثر لدى النساء كون المرأة هي الأكثر اشتعالا بالعاطفة والأقدر على التعبير عن مكنونات النفس من الأسى والتفجع[4]،وكما برع في ذلك شعراء الفصيح برع فيه أيضا شعراء الملحون إذ نجد الشاعر محمد مريزق المسعدي نادبا ابن عمه:

يالايمني شوف حالي واتماهـــل هاذي الصدمة ما قدرنا لخفاها

جرحي جا عميق دمي يسايل والضربة عالقلب تقتل مولاها

كما تقول الشاعرة قاسم أم الخير في وصف نزول خبر وفاة أخيها الذي توفي بفرنسا سنة 1943 نادبة إياه[5]:

1- ينظر : شوقي ضيف، الفن الغنائي(2) الرثاء، ط 4، (مرجع سابق)، ص (5،12).

2- ينظر : تلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري الشيخ التلي بن الشيخ.،المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر.1990، ص30.

3- الأستاذ حجيات، مجلة آمال (مجلة أدبية ثقافية)- تصدر عن وزارة الاتصال- والثقافة ع68 ،2000، الجزائر.، ص109.

4- ينظر :

- د. علي نجيب عطوي ، الخنساء بنت عمرو(شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي)،(مرجع سابق)، ص69 . و- د. حسين نصار، الأدب الشعبي العربي، (مرجع سابق) ، ص89.

5- سجلت الأبيات بعد لقاء مع الشاعرة في، 07/11/ 2008.

يا وعدي ذي الهم جانا متعدي والله لا يبلي الخلايق بالمحنـــــات

طرف بريا جاب كيات ليـــــا وخلق الله من محنتو قاع اتباكات

هذي جمرة طاحت عليا وحدي و ميخوذة ومكدسة هدة مرات

5-2 – التأبين:

ليس التأبين نواحا بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص إذ يخر نجم لامع من سماء المجتمع فيشيد به الشعراء متوهين بمنزلته السياسية أو التأبين ضربا من التعاطف والتعاون الاجتماعي.فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها،ولذلك يسجل فضائله،وكأنه يريد أن يحفرها في ذاكرة التاريخ وهذا حتى لا تنسى على مر الزمن.[1]

وشعر الخنساء في أخويها صخر ومعاوية في الشعر الجاهلي بفيض بهذه المعاني[2]،ومن الأمثلة الشعبية في ذلك قول الشاعر عبد الرحمان عزيز في رثائه للشيخ الإمام سي عطية والتي عمد فيها الشاعر إلى تعداد مناقب هذا الإمام والدور الذي قام به في نشر العلم والدين مستهلا :[3]

سي عطية طلبة* الليلة راها تقرا قاع أحبابوا حاضرة تتأسف عليه

يتفكر في خصايل المبـــــــرور ويقولو قداش من طالب مقريـــه**

وبهذا فالتأبين تعدد فيه محامد المتوفي ويكون ذلك عند زيارة القبور أو في اجتماع يعقد لذكرى الفقيد ويشتد في ذلك الغلو في ذكر أوصاف الميت من شجاعة ومروءة ونجدة ووفاء وحماية للجار وكرم ....

إذ نجد الشاعرة قاسم أم الخير تقول مؤبنة سي الشريف شيخ زاوية دار الشيوخ 4:

خلانا حيوان هامل ***في الصحراء ما عندو عساس**** لا رعيان معاه

1- ينظر : شوقي ضيف الفن الغنائي (2) الرثاء، ط4 ،(مرجع سابق) ، ص6 .

2- يحيى الشامي، الخنساء شاعرة الرثاء، دار المعارف، بيروت، ط1، 1999، ص 28 .

3- ينظر : سجلنا الأبيات بعد لقاء مع الشاعر في 2008/10/20 . .

*- طلبة : جماعة من الذين يتلون القرآن في بيت الميت بصوت مرتفع .

**- مقريه : درسته .

4 -سجلت الأبيات بعد لقاء مع الشاعرة قاسم أم الخير في، 07/11/ 2008.

***- هامل : ضائع .

****- عساس : حارس.

5-3 – العزاء:

مرتبة عقلية فوق درجة التأبين فترى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة وقد ينتهي به التفكير إلى معاني فلسفية عميقة فإذا بنا نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود، ومراد ذلك كله أن الحياة ظل لا يدوم[1]،وهو ضرب يتجه للتفكير في رحلة الحياة ومصير الناس وحتمية الأقدار ونزول البلاء ونجد هذا المعنى حاضرا في مرثية لبيد بن أبي ربيعة الشاعر المخضرم في أخيه الذي قتلته الصاعقة[2] ،وهو نوع موجود بدوره لدى شعراء الملحون يجسد ضعف الإنسان أمام نوازل الدهر ومصائب الزمن .فنجد الشاعر محمد مريزق المسعدي يعزي نفسه في والدته قائلا:[3]

الأجل مقدر كل واحد ليه أسباب ما يتأخر على المواقت بالثوانـــي

كل آخر تديه سبة للتـــــــــراب فعلوا صاحب ليه واسكن لكفاني

اصبر يا خويا يجازيك الوهـــاب المولى مادح من صبر في القـــرآن

فالشاعر الشعبي يعزي نفسه برضائه بقضاء الله فثقافته التي يستمد غالبيتها من الدين تجعله يصبر بحكم ربه ولا يجد سبيلا إلا بكاء فقيده والدعاء له بالجنة لأن الحزن على المتوفى في الإسلام لا يتجاوز ثلاث أيام فيما غدا الزوجة.

لكن الشاعر الجاهلي كان عكس ذلك إذ يعزي نفسه بعموم ظاهرة الموت على باقي البشر وقد يجهل هذا الراثي فيقتل نفسه حزنا كون لا شريعة تردعه ولا دينا أو قرآنا يبعث في نفسه الطمأنينة فنجد الخنساء بغد أن حزنت وبكت تعود إلى نفسها مدركة أن المحنة حقيقة كبيرة محنة الناس جميعا ولا يستطيعون لها ردا ولا دفعا فتقول:[4]

ولولا كثرة الباكين حولـــي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأســـي

والموت والحياة لكلاهما معنا عميق ولهما بعد فلسفي والشاعر الشعبي رغم ثقافته البسيطة قد عاش تجربة حياتية عميقة وقد تفطن لهذا البعد الفلسفي . فنجد الشاعرة قاسم أم الخير في فلسفة الحياة والموت تقول: [5]

1- ينظر:شوقي ضيف، الفن الغنائي(2). الرثاء، ط4، (مرجع سابق)، ص6.

2- ينظر:زكريا صيام، شعر لبيد بن أبي ربيعة بين جاهليته وإسلامه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، د ت، ص 144 .

3- أخذت القصيدة من ديوان الشاعر المرقون عن د بن علي الطاهر- ج زيان بن عاشور بالجلفة- في 01 /01 /2007.

4- شوقي ضيف، الفن الغنائي(2)، الرثاء، ط4، (مرجع سابق)، ص 87 .

5- سجلت الأبيات بعد لقاء مع الشاعرة قاسم أم الخيرفي 2008/07/11.

الدنيا من شاوها* هذي هي وينا عبد بنهارها ما كوات

لضحكتلو بالمرار تدور عليه غير لا شاف المحاني** بردات

محمد مرزوقي في كتابه الأدب الشعبي في تونس يقول: " شعر الرثاء ويسميه المحدثون (شعر التعازيأو العزاء) وهو لا يختلف في أسلوبه عن المراثي الفصيحة ".[1]

وهكذا فهناك مطابقة بين شعر الرثاء وشعر العزاء دون ذكر لباقي معاني الرثاء، وهذا كله يدل على أن هناك صعوبة في الفصل بين المعاني الثلاث فالقصيدة الرثائية تحوي المعاني الثلاث من ندب وعزاء وتأبين في كل المجالات من طبيعة المرثي من أسرة ،وصديق، ونفس ،وشباب ،ومدن وعلماء ورؤساء وحكام. فهناك ندب الصديق كما هناك عزاؤه وهناك تأبينه...فالموت هو تجربة رغم ذاتيتها إلا أن معانيها إنسانية فمن الصعب الفصل بين مشاعر الحزن فالراثي الشعبي في رثائيته يندب أحباءه و أثناء ذلك يتذكر منهم ما حرم منه و يتذكر أيامه معهم فيعدد مناقبهم ليدخل في باب التأبين و أخيرا تدفعه عقيدته الإسلامية وتجربته الحياتية وفلسفته المكتسبة من قسوة الزمن على قبول الحياة كما هي على أنها دار زوال وانتقال وليست دار بقاء واستمرار فيعزي نفسه و يخضع.

6- مقومات الرثائية الشعبية :

6-1- التأريخ في الرثاء:

إن الزمن عامة شكل مقدس لدى الإنسان الشعبي فكما يحن هذا الإنسان إلى المكان المقدس ويضفي على عالمه من روح هذا العالم يحن بدوره إلى الزمن المقدس الذي لا يفنى و الإنسان الشعبي يحاول زحزحة هذا الإحساس بالزمن المحدد ليعيش في الزمن الذي لا يعرف النهاية ولهذا فهو حريص على إحياء احتفالاته القديمة مع كل دورة من أدوار السنة لأن هذا الاحتفال يعني الحياة المتجددة الشبيهة بزمن الكون المتجدد ومن ثم فهو يشعر بتجديد نفسه ويستخدم في احتفالاته هذه إبداعاته الخاصة المترجمة لآماله وأحلامه وحتى ألامه.[2] والتأريخ بالأيام شكل من أشكال الزمن القدسي وهو معروف منذ القدم فقد كان العرب يؤرخون أحداثهم الكبيرة بأيام معينة مضاف إليها الحدث[3]،وعادة التأريخ بالأيام معروفة في البيئة الجزائرية

*- شاوها: بدايتها .

**- المحاني: المشاكل .

1- محمد المرزوقي، الأدب الشعبي في تونس، الدار التونسية للنشر، تونس ،د ط، 1967)، ص 170.

2- نبيلة إبراهيم ، أشكال التعبير الشعبي ، (مرجع سابق)، ص12.

3- العربي دحو، الشعر الشعبي و دوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، ج1، (مرجع سابق)، ص137.

وهي مستمرة إلى اليوم فنجد الكثير من العجائز والشيوخ إذا سألته عن تاريخ ميلاده هو أو تاريخ ميلاد شخص آخر يقول " عام التشيشة " وهو المجاعة،و"عام الجملة" ويقصد به عام أخذ الجزائر حريتها أويقولون: " عام مات فلان" ويكون هذا فلان معروفا كقولهم " عام مات بن لونيس*".

والرثائية الشعبية كغيرها طبعت بطابع بيئتها فوجد التأريخ بأيام الأسبوع أو بذكر السنة أو الربط بتاريخ حدث هام.فنجد محمد مريزق يقول فقد صديق:

قايل هذا الشعر يطلب من الصحاب يدعولو بالخير مع الغفراني
جبت الكلمة في الشهر الثالث ترتاب سبعة والتسعين ثم القيواني
تسعمية وألف ميلادي باحســـــاب تمناها بأمر خالق لكواني

ويضيف قائلا في قصيدته " فقد الأخ":

ذي كتبت راها علينا بالتسطار قوللهم قسوم ما هو في الهانة
صديت وفارقتكم بأمر الجبار وفي ليلة جمعة وصلنا قربانـــه

6-2- الإقليمية في الرثائية:

هناك من الدارسين من رأى أن قصائد الشعر الشعبي إقليمية قومية تدرس بالنظر إليها كظاهرة اجتماعية وسياسية وثقافية،ولعل هذه الإقليمية مصاحبة للغة العامية و هناك من دعا إليها في بعض البلدان العربية لدوافع شتى منها المغرض الذي يساير بعض الأجانب لإضعاف اللغة العربية الفصحى ومنها المجتهد غير المغرض،ولعل الجزائر كانت السباقة للاهتمام (بالعامية) عقب الاحتلال لغة و أدبا كما كانت أول بلد نكب بالاستعمار.[1]

وقد تكون الإقليمية مصاحبة للقضايا المطروحة فتكون القضايا في إطار قومي أو إنساني،والإقليمية ليست نقيضا للقومية والدارسون يقسمون الشعر العربي إلى عراقي وتونسي و مصري وجزائري.....ولكل قطر عربي خصوصية قومية وإقليمية والشاعر الشعبي لا يفرق بين الإقليمية والقومية كما يراها الدارسون إلا أن الحكم عام على رأي الدكتور التلي بن الشيخ .فكما أخرج الشعر الديني على أنه يتميز بنوع من الشمولية التي تتجاوز النظرة القومية والإقليمية باعتباره يحمل الروح

*- خائن قاد حركة تمردية مدعوما بالمخابرات الفرنسية في جويلية 1959. ينظر : - محمد بلقا سم الشايب ، الجلفة تاريخ ومعاصرة ، (مرجع سابق)، ص (85.86).

1- ينظر:عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائر الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981 ،ص91.

الإسلامية إلى اعتباره شعرا إنسانيا ،[1]يمكن أن تخرج القصيدة الرثائية بدورها كونها تنم عن أبعاد إنسانية تجسد فلسفة الموت والحياة وتترجم البعد الديني الإسلامي في القضية ،ولعل هذا السبب ذاته المؤدي إلى انتشارها أكثر من غيرها من المواضيع في الشعر الملحون أحيانا .

ويرى حسن فتح الباب أن فن الرثاء في نماذجه الراقية ينبع من أعماق النفس فلا يلحقه ما يلحق الهجاء من تجن ينم عن الحقد والبغضاء أو يلحق الفخر من استعلاء و تعصب أو يلحق الغزل من ذاتية مفرطة فهو مركب من الذاتية والحاسة الاجتماعية والنظرة الكلية الشاملة تلك النظرة التي يتداخل فيها الماضي والحاضر والمستقبل والجماعة والعالم[2]،ويضيف الدكتور علي نجيب عطوي عن إنسانية الرثاء قائلا: " ...والعامل الإنساني الذي يكمن وراء الرثاء هو الذي يطبع هذا الفن بطابعه فيقال عنه إنه فن إنساني يرتفع فوق المصلحة الذاتية".[3]إذ نجد الشاعر محمد محمدي (القلاسة) في رثاء والدته مجسدا لصورة الألم الإنساني وكأنه مشهد من مشاهد مسرحية تراجيدية طارحا فلسفة الموت يقول[4]:

هذا المعنى ليك يا سابق للماح وفهني في خاطري ما هناتي

عن الوالدين كنز لا يتـــــلاح ولي يفرط فيه يمسي جيعاني

ماجيتي بالمال نعطي سبع لقاح ويجوني لحباب جملة بالفاني.

ويقول الشاعرة محمدي محمد في فلسفة الحياة:

الدنيا متقابلة دار أحذا* دار الزهو يجي ومقابلاتو لحـــــــزاني

أصبر ياقلبي أتحمل للي صـــار أتعدي وقتك بالصبر تقدا** هاني .

6-3- أثر البيئة في الرثاء:

إن أثر البيئة بكل أنواعها غالبا ما يظهر في أي أدب شعري أو نثري، وشعر الرثاء فصيحا كان أوملحونا فأثر البيئة فيه واضح وجلي ومن خلاله يمكن أن نستنبط نمط الحياة في تلك الفترة وذلك المجتمع وكذا الأعراف القيم المنتشرة فإن "...الفن إجمالا والشعر خاصة ينفعل بانفعال الإنسان بالبيئة الطبيعية من حوله والبيئة الاجتماعية التي يتحرك في بوتقتها متأثر بكل ما

1- ينظر:تلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، (مرجع سابق) ، ص12.

2- ينظر:حسن فتح الباب ، رؤية جديدة لشعرنا القديم، بيروت، دط، 1984، ص20.

3- علي نجيب عطوي، الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي، (مرجع سابق)، ص69.

4- سجلت القصيدة بعد لقاء مع زوجة الشاعر حدة محمدي في 03/07/ 2006

*أحذا : بعـــد

** تقدا : تصبح.

يطبع هذه البيئة من سمات ومميزات "[1]،و"المتلقي هو بدوره عنصر من عناصر البيئة المؤثرة والمتأثرة، فالملتقي بالنسبة للملحون هم البسطاء الذين تضعف معرفتهم بالعربية أو يجهلونها تماما وقد يقرؤه المتعلم في " الزاوية " لأنه في غالبه صادر من أصحاب الزوايا أو ممن احتموا بهم "[2]،وكما تحس الجماعة الشعبية بارتباطها الوثيق بالعالم الآخر فإنها تحس كذلك بعلاقتها الوثيقة بالطبيعة فالإنسان صلته وثيقة بالنبات والحيوان والطير وبشروق الشمس وغروبها وبكل مظهر من مظاهر الطبيعة.[3]فالبيئة هي بحق المعلم الأول للإنسان البدوي وكما تختلف التضاريس البيئية من منطقة إلى أخرى تختلف بدورها انطباعات الإنسان ونمط تفكيره.فبالنسبة إلى البيئة الاجتماعية يظهر تأثيرها جليا في الظاهرة اللغوية، فلغة الرثاء عامة هي لغة المجتمع الذي توجد فيه ويفهمها ويتفاعل معها ،وتترجم قيمه الفكرية والاجتماعية،وبالرغم من أن اللغة تعد هي الأقل تأثيرا من بين النتاجات الاجتماعية بما يطرأ على الجماعة من تغيرات كونها أداة الاستمرار الاجتماعي فهي تظل متحفظة بقواعدها ومفرداتها عبر مراحل تاريخية طويلة وحافلة بالتغيرات الاجتماعية[4]،والراثي الشعبي لما يستعملها بما تحمله وتخزنه من مراحل تاريخية وتغيرات اجتماعية فهو يطبع بطابع البيئة الاجتماعية،والمتذوق للرثاء في الشعر الملحون يرى جمال التصوير ودقة الوصف وحلاوة المعاني وخصب الخيال من خلال ذكر الراثي الشعبي للطبيعة في هذا الكون الفسيح بما فيه ظلام ونجوم وجبال وسهول ورياض ومروج ومغارات وطيور فهو يناشد هذه الظواهر ويبكيها ويقتبس منها،والشاعر الجزائري لم ينصب اهتمامه على ظاهرة طبيعية فقط بل تطرق للعديد من الظواهر سواء كانت حية أو صامتة أو متحركة كوصف الخيل التي هي رمز البطولة العربية وعنوان الرجولة إذ أن العربي عليها يكر ويفر ويتجول في البراري والقفار[5]،وليس هذا غريبا على الشعر العربي فقد قال الأصمعي أن" سبيل الشعر هو وصف الحياة البدوية بطبيعتها وحيوانها فإذا أخرج عن هذا الطريق لان وضعف ".[6]

فنجد الشاعر محمد مريزق يرثي أمه يقول:

فات الوقت أدارت عليا لقدار واهدم صوري لي ضـــاري باني

بعد أن حل الصيف واتلاحت لقمار غاب الفارس كان حارس لجنانـــي

قمري كان اضياه شامل ذي لدوار اتخفى غطاتو اسحابة واجفانـــي

1- ميشال عاصي ، الشعر والبيئة في الأندلس، بيروت ، د ط، 1970، ص 8.

2- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، (مرجع سابق)، ص 383.

3-ينظر: نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، (مرجع سابق)، ص 12.

4-ينظر: محمد حافظ دياب، نشوء الآداب الشعبية العربية ،الديناميات السوسيو تاريخية، مركز دراسات الوحدة العربية، (مرجع سابق)، ص 318.

5- ينظر:أحمد أو بحي، الخيل في القصائد الجاهلية والإسلام، صيدا،بيروت،د ط، د ت، ص63.

6- زكريا صيام، دراسة في الشعر الجاهلي ،المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1984، ص145.

ارحل سبعي عني لي ضاري قهقار ولاقيت بعد أن صمت مالقانـــي

هنا الشاعر يستخدم عناصر الطبيعة من صامتة (قمر ،الصيف ،السحاب)،ومتحركة(السبع) في رمزية منه إلى تغير أوضاعه وتخييم الحزن على كل ما يحيط به بعد فقده لوالدته .

6-4- التجليات الروحية في الرثاء:

إن الراثي الشعبي الجزائري شاعر وثيق الصلة بربه ونبيه وعقيدته فهو يتقرب إلى ربه بالدعاء وبجاه نبيه الكريم وتارة أخرى بالأولياء الصالحين والصحابة فقد يبدأ الشاعر بذكر الله و الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ينتهي بذلك أيضا[1]،وهذا الشعور الديني راجع لعدة أمور منها :

- حب الشاعر الشعبي لعقيدته ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم.
- اتجاه الكثير من الشعراء للطرق الصوفية مما رسخ روح الإيمان لديهم.
- البيئة الجزائرية المحافظة المتمسكة بعقيدتها الإسلامية لدرجة تقديسها.

وهذه الأمور وغيرها جعلت من الراثي الشعبي الجزائري شاعرا متمسكا بعقيدته مدافعا عنها.

ولكن الذي نريد الوقوف عنده هو الافتتاحيات والخواتم الدينية في المراثي وتلك سمة بارزة ترجع لتمسك الشاعر بعقيدته وإلى معرفته الجيدة بالناس الذين يخاطبهم في شعره و كيف يبدأ ويختم[2]،وهذا ما نستشفه مثلا من قول الشاعر مريزق المسعدي :

محمد ياك الصبر مفتاح البـــــاب أكلش بأمر لي انشا ذي لكواني

الأجل مقدر كل واحد ليه أسباب ما يتأخر عالمواقت بالثوانـــــي.

وهذه البداية دالة على إدراك الشاعر لأهمية الافتتاحية الدينية وهي ظاهرة تمس كل الأغراض.[3]

والرثاء يعد شعرا اجتماعيا لذلك جاء صورة واضحة للحياة الاجتماعية.[4]

ونجد محمد محمدي (القلاسة) يفتتح رثائياته بقوله :

1- ينظر:عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص377.

2 ينظر: وذناني بوداود، أعمال المهرجان الوطني للشعر الشعبي والأغنية البدوية ، الأغواط (17-21)، نوفمبر، 1999، ص (103، 104).

3-ينظر:المرجع نفسه ، ص105.

4- ينظر:المرجع نفسه، ص107.

يا ربي يا خالقي ناشي لـــــرواح يا مولاي الحق كنز الأكواني

راني ندعي فيك كل مسا وصباح تغفر لي للوالدة يا سلطانـــي.

ويختتم بقول:

محمد جيناه بالناس الصلاح يطلب في لالاه عالي الغفرانـــي

يا ربي بجاه طه بولربـــاح نجينا من حرصهـــد النيرانـــي

أسكن الأم فسيح الجنـــة بجه الرســـول طـــه لاميـــــن

في معهد صديق بها تجمعنا في جنة الخلـــد تراها بالعيـــن

أرضي يل ربي ورضيها عنا واجعلها جوارللي مرسليـــــن

الموت الذي تقف البشرية جمعاء عاجزة أمامه ابتدعت له الذاكرة الشعبية مثل غيرها متنفسا تمثل في شعر يترجم كل مشاعر الحزن المنبعثة من نفس مكسورة لفقد عزيز فشكل بذالك صورة فنية متكاملة الأجزاء .فاللوحة الرثائية بهذا بكل ما تختزنه من مشاعر قد تحملها النفس إبداعية جمالية كان باعثها تجربة الموت .

و يمكن القول أن الرثاء في الشعر الملحون قد رقى إلى درجة الرثاء في الشعر الفصيح من حيث درجة العمق و التأثير وحمل نفس الخصائص الفنية.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب العربية:

1- القرآن الكريم

2-أحمد أويحي، الخيل في القصائد الجاهلية والإسلام، صيدا، بيروت، د ط، د ت .

3-بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام، دار صادر، بيروت، ط1 ، 1996.

4-تلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830 – 1845، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، د ط 1983 .

5-تلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري الشيخ التلي بن الشيخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

6-جلول يلس وأمقران الحفناوي، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، دار رحاب،الجزائر، د ط، د ت .

7-حسن فتح الباب، رؤية جديدة لشعرنا القديم، بيروت، دط، 1984.

-حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، منشورات اقرأ، بيروت، لبنان، ط 2، 1980.

9-حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الفلكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، مطبعة الانتصار، مصر، د ط ،1993.

10- زكريا صيام، شعر لبيد بن أبي ربيعة بين جاهليته وإسلامه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، د ت .

11- زكريا صيام، دراسة في الشعر الجاهلي، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1984.

12-مارون عبود، الشعر العامي، بيروت، لبنان، د ط، 1968.

13-محمد الجوهري، حسن الخولي، منى القرنواني ،النظرية في علم الفولكلور، مطبعة العمرانية، القاهرة، د ط، 2003.

14- محمد الجوهر، الفلكلور العربي، بحوث ودراسات، م،1 مركز البحوث للدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ط1، 2000 .

15 - محمد حافظ دياب ، الديناميات السوسيو تاريخية،مركز دراسات الوحدة العربية ، إشراف عبد المنعم تليمة، بيروت، مارس، 1987 .

16-محمد المرزوقي، الأدب الشعبي في تونس، الدار التونسية للنشر، تونس ،د ط، 1967.

- ميشال عاصي ، الشعر والبيئة في الأندلس، بيروت ، د ط، 1970 17

18-مي يوسف، الشعر النسائي في أدبنا القديم، مكتبة غريب، القاهرة، د ط، د ت.

19-عبد الحميد بو رايو، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، د ط، 2007.

20-عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائر الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981 .

21-العربي دحو، عر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس من1954 – 1962، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، د ط ،1989.

22- علي محمد سلام ،البكاء والدموع في الفلسفة والأدب والحياة الاجتماعية،مراجعة :إسماعيل عبد الفتاح، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، د ط ،2005.

23-عمارية بلال (أم سهام)، شظايا النقد والأدب، دراسات أدبية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

24-علي نجيب، الخنساء بنت عمرو (شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1 ،1993 .

25-سلامة موسى، الأدب للشعب، سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة، د ط ، د ت .

26-شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن الغنائي (الرثاء)، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1980.

27- وذناني بوداود، أعمال المهرجان الوطني للشعر الشعبي والأغنية البدوية، الأغواط (17-21)، نوفمبر، 1999

28- يحي الشامي، الخنساء شاعرة الرثاء، دار المعارف، بيروت، ط1، 1999.

الكتب الأجنبية:

1-DAN BEN, AMOS, "Toward A Definition Of Folklore In Context " In B, Hammond, Ed Cultural And Social Anthropology (New York : Makmillan : 1975), pp 359, 366.

2- O.E.A REWA AND DAN BEN AMAS , "Proverbs And Ethnology Speaking Folklor", American Anthropologist, Vol.66, 1964, p71.

الدوريات:

1-الأستاذ حجيات، مجلة آمال (مجلة أدبية ثقافية)- تصدر عن وزارة الاتصال- والثقافة، الجزائر ،ع68 ،2000.

2-رابح بونار، مجلة آمال، وزارة الاتصال والثقافة ، الجزائر، ع 68 ، 2000

الروايات الشفوية:

1- أم الخير قاســـم (شاعرة).

2- بن علي الطاهر (راوي).

3- حدة محمـــــدي (راوية).